# العقل مفهومه وأهميته

## (دراسة تحليلية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية)

أ.د.صلاح عوض[١]

**مقدمة**:

إن العقل يمثل الجزء المهم من الإنسان في مراحله التربوية التي يمر بها من المهد إلى اللحد؛ والدليل على ذلك أنه مناط التكليف؛ وعبره يخاطب الله خلقه ويحضهم على التدبر والتفكر في آياته الكونية.

ويعد العقل من الأشياء القلائل التي اجمعت كل البشرية بمختلف أديانها على أهميته؛ وعليه قامت الحضارات.

لقد وجدت عبر التاريخ مدارس حاولت أن تهتم بالجانب الروحي وحده في العبادات وكان ذلك شكل من أشكال الانحراف؛ كما حاولت أخرى أن تعلي من شأن العقل وحده وكذلك أصابها الانحراف؛ فالصحيح أن العقل مع الجانب الروحي هو أساس التربية وبناء الحضارات.

تشتد الحاجة إلى إبراز دور العقل في التربية من خلال النص القرآني والسنة النبوية في هذا العصر؛ لأن حضارة القرن العشرين تأسست على السخرية من الجانب الغيبي وبالغت في أعلاء قيمة العقل؛ وربما تكون معذورة لأنها وجدت الكنيسة تصد العلماء عن الاجتهاد وتكفرهم وتسخر من جهودهم العلمية خاصة في ما يتعلق بجانب العلوم الكونية؛ فهذا البحث يرمي- كغيره من البحوث- إلى إثبات دور العقل في التربية، ويعمق النظرة الشاملة لمفهوم العبادة.

لا يمكن للعقل أن يؤدي دوره من غير أن تكون هناك أشياء تضبطه وتحول بينه وبين الهوى؛ فإن كل الدراسات التي تعرضت لدور العقل في التربية لا تستطيع أن تقدم رؤية شاملة متكاملة لدوره دون الانطلاق من نصوص الكتاب والسنة؛ وإن هذا البحث محاولة لرسم ملامح دور العقل في التربية على ضوء الكتاب والسنة عله يساهم في توجيه حضارة القرن العشرين.

---

[١] أ.مشارك ، كلية أصول الدين ،جامعة أم درمان الإسلامية

## Abstract

The mind means the brain, whieh represents the material aspeet or the tangible mind, also means the heart, whieh is the spiritual aspeet or the heard mind and there is a strong relationship between them.

The worship with all types sueh as prayer, fasting, Zakat, Hajj, relatives visit and doors of interest raise grades and incase wage of the Muslim, if the Muslim did it with thinking by using his mind; that means the importanee of the mind in educate the self and reform all aspeets of the life.

All civilizations through the history were strayed when they based on mind in putting their approaches of life far away from revelation and the mind with the spiritual mean, the prophets came to reform the situations and drive peoples to the God by using mind with its both aspeets (material and spiritual).

The good will that eame from heart by the reasons of revelation texts is the strongest eontrols of material mind, it prevents the mind from falling in delusions, bias, faney and apologizing speeial interests, also the history eontrol that provides the mind by sermons and lessons whieh came from Holley Quran and Suna related to standing and eollapsing of eivilizations.

The mind diseases that prevent it from perform its message in education are represented in sterile debate whieh based on sub

issues, absolutely using mind instead of transfer in cases of measurement and investigation.

The dangerous is increasing in this age after spreading communist schools likes humanitarian, nature, material and other schools of thought that raised the mind in its material aspect and dropped the spiritual aspect.

The study aims to explain the necessity of mind in both aspects in education of selves, warning the nation to the necessity of spiritual and material mind during all types of life politically, economically and socially.

**مستخلص البحث :**

يأتي العقل بمعنى المخ والدماغ، وهو يمثل الجانب المادي أو ما يعرف بالعقل المطبوع؛ ويأتي بمعنى القلب وهو الجانب الروحي الذي يقوم عليه الأمر والنهي أو ما يعرف بالعقل المسموع؛ وبينهما ترابط شديد.

إن العبادة بكل أنواعها من صلاة وصيام وزكاة وحج وصلة رحم وكل أبواب الخير ترفع المسلم درجات وتزيد في أجره وثوابه إذا أداها المسلم بتدبر وتفكر مستعملاً عقله؛ وهذا يدل على أهمية العقل في تربية النفس وإصلاح كل أوجه الحياة.

لقد ضلت كل الحضارات المادية، عبر التاريخ، عندما اعتمدت على العقل بمعناه المادي في وضع كل مناهج حياتها بعيداً عن الوحي والعقل بمعناه الروحي؛ وما جاء به الأنبياء إلا لتصحيح الوضع وسوق الناس إلى الله بالعقل بشقيه المادي والروحي.

إن الإرادة الطيبة المنبعثة من القلب بسبب نصوص الوحي تعد من أقوى ضوابط العقل المطبوع؛ إذ أنها تمنعه من الوقوع في الهوى والأوهام والتحيز وتبرر مصالحه الخاصة؛ ذلك بجانب ضابط التاريخ الذي يوفر للعقل العظات والعبر المستمدة من قصص القرآن الكريم وما فيها من سنن إلهية تتعلق بقيام وانهيار الحضارات.

وتتمثل أمراض العقل التي تقعده عن أداء رسالته في التربية، في كل من الجدل العقيم الذي يقوم على المسائل الفرعية، وتقديم العقل على النقل مطلقاً في حالات القياس والكشف والوجد.

ويشتد الخطر في هذا العصر بعد انتشار مدارس العلمانية من إنسانوية ووضعية وبراغماتية وتأليه الطبيعة والطبيعية والمادية وغيرها من مدارس الفكر التي أعلت من شأن العقل بمعناه المادي وأهملت الجانب الروحي.

إن هذا البحث قصد منه تبيين أهمية العقل بشقيه في تربية النفوس، وتنبيه الأمة إلى ضرورة الجمع بين العقليين المسموع والمطبوع عند وضع كل مناهج الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

## تعريف العقل لغة واصطلاحاً

جاء في لسان العرب العقل هو الحجر والنهي وهو ضد الحمق؛ وكل شخص جامع لأمره، ويستطيع أن يحبس نفسه ويردها عن هواها، والناس يأخذون برأيه، يوصف بأنه عاقل؛ ويطلق العقل على القلب والقلب على العقل؛ ويذكر ابن فارس أن العقل هو الحابس عن ذميم القول والفعل، ويسمى الرجل عقولاً إذا كان حسن الفهم وافر العقل؛ ويرى الفراهيدي أن العقل نقيض الجهل، والمعقول هو ما تعقله في فؤادك.(٢)

وذهب الراغب الأصفهاني إلى أن أصل كلمة العقل عند العرب تعني الإمساك والاستمساك؛ ومن هنا أطلقوها على العقال ؛لأنه يمسك الإبل، والمرأة التي تمسك شعرها يقال عقلته، وكذلك من يمسك لسانه عن الكلام يكون قد عقله؛ والمقصود بعقل العقل القوة المتهيئة لقبول العلم؛ ولهذا العلم الذي يستفيده الإنسان عن طريق هذه القوة يطلق عليه عقل.(٣)

ويلاحظ أن جملة التعريفات تلك يفهم منها أن العقل عند علماء المسلمين، خاصة أهل اللسان، هو القدرة على لجم النفس من الوقوع في

---

(٢) ينظر: الخليل بن أحمد، لسان العرب، ١١/ ٤٥٨، ، وينظر: أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، ٤/ ٦٩: دار الجيل - بيروت - لبنان - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، الطبعة: الثانية، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،وينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي كتاب العين، ١/١٥٩: دار ومكتبة الهلال، تحقيق: د مهدي المخزومي / د إبراهيم السامرائي.

(٣) ينظر: أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الاصفهاني ، المفردات في غريب القرآن، ١/ ٣٤١ : دار المعرفة - لبنان، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

الهلاك؛ وذلك بسبب حسن الفهم؛ وأن كل الأعمال والأقوال التي تتصف بالحمق والجهل هي ضد العقل.

وأن كل تلك العمليات تتم في القلب؛ وهو ما يتفق مع ما توصل إليه العلم الحديث من أن في القلب خلية تخزن فيها نسخة من المعلومات التي توجد في الدماغ؛ وعليه يتبين لنا الأثر العميق لهذا القلب في العملية التربوية في كل مجالاتها؛ وسنلاحظ أن القرآن الكريم يطلق على العقل القلب والعكس صحيح.

**تعريف العقل اصطلاحاً :**

يرى الغزالي أن العقل مراد به العلم بحقائق الأمور، وهذا العلم صفة محلها القلب، وعليه يطلق على القلب العقل، فهو اللطيفة الربانية المدركة العاقلة المكلفة، فهو غريزة كأنها نور خلقه الله ليدرك العلوم وعواقب الأمور، ومن ثَمَّ يقمع الهوى، وهذا النُّور يقل ويكثر، والدليل على أنَّ محل هذه الغريزة(العقل)، هو القلب، قوله تعالى:﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: من الآية٤٦]، وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق: من الآية٣٧]، فالمراد العقل،فعبَّر بالقلب عن العقل لأنَّه محله، خلافاً للإمام أحمد وأصحاب أبي حنيفة الذين يرون أنَّ محله الدماغ.(٤)

إن كثيراً من علماء الشرع يشيرون في تعريفهم الاصطلاحي للعقل إلى ما يتعلق بالقلب؛ وهو محل الهدى والضلال والعلم والجهل والإيمان والكفر؛ خلافاً للإمام أبي حنيفة والإمام أحمد اللذان يجعلان العقل هو المخ والدماغ؛ وكيفما كان الاختلاف فالجميع يؤكد أهمية العقل في تزكية النفوس وإصلاحها.

**أنواع العقل:**

وبناء على تعريفات العلماء للعقل، وما وصل إليه العلم الحديث من أن هناك خلية في القلب بها نسخة من معلومات المخ والدماغ فإنه يمكن تفريع العقل إلى نوعين:–

---

(٤)ينظر، الغزالي، الإحياء، ٥/٣.و ينظر، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، ذم الهوى، ٥/١، تحقيق مصطفى عبد الواحد.

**النوع الأول: العقل المطبوع:**

ويقصد به العقل المخلوق الذي لا يتصور العقل المسموع بدونه؛ وذكر رسول الله هذا النوع من العقل في حديثه" **ماخلق الله خلقا أكرم عليه من العقل**"(٥)

أثبت العلم الحديث أن العقل المطبوع له قدرة تخزينية عالية للمعلومات، ويستقبل ملايين الإشارات في ثوانٍ معدودة ، ويقوم عبر خلايا متخصصة بعمليات الفرز والتصنيف، ويرتب كل ذلك حسب الأهمية، وقد أثبت العلم الحديث كذلك أن في القلب خلية يتم فيها تخزين نسخة من المعلومات التي يخزنها العقل المخلوق؛ وهي محل التحليل والتحريم والأمر والنهي.(٦)

**النوع الثاني: العقل المكتسب أو المسموع:**

ويقصد به العقل الذي يكتسبه الإنسان بتحصيله العلوم والمعارف، ومن لم يكن له عقل مطبوع لا يكون له عقل مسموع؛ وهذا العقل هو المعني بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت : ٤٣] وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ [البقرة : ١٧١] إلى قوله ﴿صُمٌّۢ

---

(٥)رواه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة ، حديث رقم ٨٥١، وينظر: الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ١/ ٣٤٢.

(٦) ينظر: حلقات علمية قدمها د/ مصطفى محمود على قناة إقرأ الفضائية وهي مبثوثة على اليوتيوب على مواقع الشبكة.

بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[البقرة : ١٧١]  ونحو ذلك من الآيات وكل موضع رفع التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارة إلى الأول.(٧)

ويطلق على العقل الخالص من الشوائب لب اللب؛ وسمي بذلك لأنه يمثل المعاني الخالصة في الإنسان، ويطلق كذلك على ما زكى من عقل الإنسان، وعليه فكل لب عقل وليس كل عقل لب؛ ومن هنا فإن الله ذكر أن أحكامه لا يدركها إلا أصحاب العقول الزكية الذين سماهم أولي الألباب في قوله تعالى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[البقرة : ٢٦٩](٨)

وهذا هو العقل الذي محله القلب وهو ما أشار إليه الإمام الغزالي باللطيفة الربانية المدركة العاقلة، والتي تميز الإنسان عن الحيوان.

**أهمية العقل في التربية:**

إن العقل بكل أنواعه له أثر بالغ في تربية الفرد والجماعة والنهوض بالأمة؛ وللعقل المسموع وحده أثر في التربية ولكنه ناقص؛ وكذلك للعقل المطبوع المكتسب أثر في التربية ولكنه ناقص؛ والمطلوب لبلوغ الكمال والسيادة والريادة لهذه الأمة، أفراداً وجماعة، أن تقوم مناهجها على الجمع بين العقلين والاستفادة من ثمارهما في النهضة.

فإطلاق العلوم والمعارف على العقل، وإطلاق العقل على القلب، يدل دلالة واضحة على العلاقة الوثيقة بين العقل والقلب، ومن هنا ندرك خطأ

(٧) ينظر: الراغب الأصفهاني، مصدر سابق، ١/ ٣٤٢، وما بعدها.

(٨) ينظر: المصدر نفسه، ١/ ٤٤٦.

مدارس التزكية و الإصلاح التي ركزت على القلب وحده في مناهجها التربوية الإصلاحية، وكذلك تلك التي أعلت من شأن العقل وأهملت القلب.

والصحيح أنَّ العمليات العقلية، من تدبر وتفكر وتذكر وادكار، هي التي تمد القلب بالمعارف والعلوم الموصلة للإيمان وحقائق اليقين والخشية، وتوقفه على قدرة وعلم وعظمة الله؛ وما ذهب إليه الغزالي من أنَّ أحد معاني العقل هي القلب نفسه، يؤكد هذه الحقيقة؛ فالمنهج السوي هو الذي يجمع بين كل ذلك.

فالقلوب أوعية ومخازن تمدها العقول بالمخزون، فإذا توقفت هذه العقول عن الامداد نفد مخزون القلوب. (٩).

فالمخزون الذي في العقول، هو ما أشرنا إليه من علوم ومعارف نتيجة العمليات العقلية، بجانب ذكر اللسان، والاستغراق في الطاعات بذكر الجوارح؛ والذين يحاولون أن يجعلوا منهجهم في التزكية، الذي يقوم على نمط واحد من أنماط الذِكْر، هم الحمقى الذين فوتوا على أنفسهم منافع أنواع الذِكْر الأخرى، وظنوا أنَّ التزكية والإصلاح لا يكونان إلاَّ عبر منهجهم دون سواه.

فالله قد أمر عباده أن يذكروه على كل حال، والذِكْر مراتب بعضها أحب وأفضل عند الله، ولا ينفي ذلك مزية الأنواع الأخرى؛ فذِكْر الله بالقلب واللسان، مع شهود القلب للمذكور، والاجتماع الكامل إليه، عن

(٩)ينظر، عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا البغدادي، العقل وفضله١/٦٣، دار الراية، الرياض، ١٤٠٩هـ، الأولى، تحقيق لطفي محمد الصغير.

طريق الأذكار، هو أعلى أنواع الذِكْر، ثُمَّ يليه ذكر القلب واللسان مع غياب الشهود، ثُمَّ ذكر القلب وحده، ثُمَّ ذكر اللسان وحده. (١٠).

فشهود القلب لله والاجتماع إليه لا يحدث إلا لقلب مده العقل، بمعنى المخ والدماغ، بمخزون من الحقائق العلمية التي توصل لها العلم الحديث بالصورة والصوت؛ وهي تبين تجلي قدرة الله في الأنفس والآفاق.

فذكر القلب واللسان، يثمر المعرفة، ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة وينزع عن التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئاً منها فثمرته ضعيفة.(١١)

ويذكر ابن القيم في مدارجه أن من أقوى الأسباب التي تنزل المسلم مقام حب الله هي مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة؛ ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.(١٢)

---

(١٠)ينظر، ابن القيم، روضة المحبين، ٣٠٩/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

(١١)ينظر، ابن القيم، الوابل الصيب، ١٢٠/١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، الأولى، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض.

(١٢) ينظر:ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ٣/ ١٧: دار الكتاب العربي - بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمد حامد الفقي.

فيلاحظ أنَّ الحضارة الغربية قد اعتمدت على المنهج العقلي في طريقها إلى العلم والمعرفة، فديكارت يؤكد حقيقة أنَّ العقل، بمعنى المخ والدماغ، هو أعدل الأشياء قسمة بين النَّاس، وعبارته الشهيرة( (أنا أفكر فأنا إذن موجود)، تدل على أن لا فرق بين شك ديكارت المنهجي وشك الغزالي النفسي، (من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمي والضلال). والنظر -وهو عملية عقلية- أول الواجبات عند المعتزلة، ومناط التكليف عند الفقهاء، وأساس النقل عند الحكماء بل والفقهاء كما قال ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل)، وفي(موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول)، وقال:وما لا دليل عليه يجب فيه﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة: من الآية١١١]. (١٣)

فالأثر الحقيقي للعقل في التربية يقوم على الجمع والمزج بين ما توصلت إليه الحضارة الغربية من كشوف وعلوم تتعلق بسنن الله الكونية، أو ما يعرف بآيات الله الصامتة المنظورة؛ وبين ما جاء في القرآن الكريم، أو ما يعرف بآيات الله الناطقة المقروءة.

ويورد ابن الجوزي أحاديث تثبت أهمية فضل العقل وعبوديته، وهي أفضل درجات العبادة، منها سؤال ابن عباس عائشة رضي الله عنها عن أيّ الرجلين أحب إليها، رجل قليل قيامه بالليل وكثير رقاده، وآخر يكثر قيامه ويقل رقاده، فأجابته بأنَّها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم عن

---

(١٣)ينظر، د/حسن حنفي، مرجع سابق.

نفس سؤاله فأجابها بأنَّ أحسنهما عقلاً هو الأحب إليه، وعندما قالت إنهـا تسأل عن عبادتهما لا عن عقلهما أجابها صلى الله عليه وسـلم بأنهمـا لا يسألان عن عبادتهما، إنّما يسألان عن عقولهما فمن كان أعقل كان أفضـل في الدنيا والآخرة.(١٤)

إنَّ من أبرز خواص الإسلام توسيع المفاهيم والتصورات، ومثال ذلك توسيع فهم الحياة وربطها بالآخرة، والفرد والجماعـة، والعقـل والقلـب، النظر والعمل، المعرفة والأخلاق والدنيا والآخرة.(١٥)

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: ((إنَّ الرجل ليكون مـن أهـل الصيام وأهل الصلاة وأهل الحج وأهل الجهاد، فما يجزى يوم القيامـة إلاَّ بقدر عقله)).(١٦)

فعندما يعقل المرء هذه الأعمال وهو يمارسها بتفكر وتـدبر، يتولـد عنده الخشوع والإقبال عليها، وذلك يدل على معرفته بالله، والـدليل قولـه تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: من الآية٢٦٩]، وتزيد معرفة المسـلم بربه، وإيمانه، كلما كانت قدرته عالية في تمييز الأدلة التـي نصـبها الله لمعرفته، ذلك التمييز الذي يُعَدُّ من أعمال العقل.والدليل على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ

(١٤)ينظر، ابن الجوزي، مصدر سابق، ٦/١.
(١٥)ينظر، د/حسن حنفي، مرجع سابق.
(١٦)ينظر، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ٢٥١/٣، دار الحـرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ، تحقيق طارق بن عوض بن محمد، عبـد المحسـن بـن إبـراهيم الحسيني.

مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[فاطر: من الآية٢٨] وقوله﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: من الآية٩].(١٧)

فكما للعقل أثر في زيادة المعرفة والإيمان ، وتثبيتهما في القلب عن طريق العبادات والتعمق والتفكر لتمييز الأدلة، فكذلك يتوصل إلى ذات النتيجة عن طريق الكشف عن أسرار وقوانين الطبيعة، إذا كان يبني هذه العمليات العقلية والتجارب المعملية على أساس التوحيد، والنية الصادقة لله؛ فعاقبة استخدام العقل في كل عمل أخروي أو دنيوي محمودة.

عن أبي هريرة قال: قال رسول اللهﷺ:"كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه".(١٨) وعن مجاهد في قوله تعالى :﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[ص:٤٥] الأيدي تعني القوة، والأبصار يعني العقل، وهذه الآية نزلت في إبراهيم وولديه، والسورة مكية، وكأنها تشير إلى الصَّحابة أنَّ هذا الدِّين لا يقوم إلاَّ على القوة العلمية المتولدة من العقل والقوة العملية المتمثلة في السلوك المنضبط بقيم الدِّين.

عن الزهري عن سالم عن أبيه قال: قال رسول اللهﷺ:"لا يعجبنكم إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله".(١٩)

---

(١٧)ينظر، أبو المحاسن يوسف بن موسى الحنفي، معتصر المختصر ، ٢/٢٨١، مكتبة عالم الكتب، بيروت، القاهرة، (بدون).

(١٨)صحيح ابن حبان، ٢/٢٣٣.

(١٩) محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ٢/٨٨، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، الثانية، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

ويذكر عن بعض الخلفاء أنَّه يرى أنَّ العقل يؤيد وينتفع بمشاورة العلماء وتجارب الحياة، وحسن التثبت، بينما يتضرر ويضعف بالاستبداد والتهاون والعجلة، ومن هنا يرى المحاسبي أنَّ هذا العقل جوهر الإنسان، بينما جوهر العقل الصبر.(٢٠)

ويفهم الضحاك أنَّ معنى الحياة في قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[يّس:٧٠]، أنها العقل، وأنَّ العقلاء هم الذين ينتفعون بالمواعظ.وقال معاذ بن جبل، لو أنَّ العاقل أمسى وأصبح وله ذنوب بعدد الرمل، كان وشيكاً بالنجاة والسلامة والتخلص منها، ولو أنَّ الجاهل أمسى وأصبح وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل، لكان وشيكاً إلاَّ يسلم له منها مثقال ذرة، قيل وكيف ذلك قال لأنَّ العاقل إذا زل تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي قسم له، والجاهل إنَّما هو بمنزلة الذي يبني ويهدم؛ فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله؛ وقال الحسن ما يتم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله امرءاً عقلاً إلاَّ استنقذه به يوما. (٢١)

ويذكر ابن الجوزي جملة من آثار العقل التي تقف شاهداً على فضيلته، وأثره في الحياة، منها أنَّه الوسيلة التي تدل على معرفة الإله وإدراك أمره، وبه يلمح المرء العواقب، ويقاوم الهوى، واستخدم كل المخلوقات وسخرها للإنسان. (٢٢)

---

(٢٠) ينظر، البيهقي، مصدر سابق ، ١٦٦/٤.
(٢١) ينظر، ابن الجوزي، مصدر سابق، ٩/١.
(٢٢) ينظر، ابن الجوزي، المصدر نفسه، ١٠/١.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أنا الشاهد على الله عز وجل أن لا يعثر عاقل إلاَّ رفعه، ثُمَّ لا يعثر إلاَّ رفعه، ثُـمَّ لا يعثر إلاَّ رفعه حتى يصيره إلى الجنة". (٢٣)

وعن أبي قتادة قال : قلت : يا رسول الله أرأيت قول الله أيكم أحسن عملاً ما عنى به ؟ قال : " أيكم أحسن عقلاً " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتمكم عقلا أشدكم لله خوفا، وأحسنكم فيما أمر به ونهى عنه نظرا ، وإن كان أقلكم تطوعا "(٢٤)

فالحديث واضح الدلالة على أن مقام الخوف الذي يحمل العبد على فعل الأوامر وترك النواهي سببه العقل الذي يقف الإنسان على معرفة قدر الله وعظمته، وهذا من أكبر معينات التربية وتعديل السلوك.

ويلاحظ أن صاحب العقل أكثر خوفاً من الذي يكثر من أعمال التطوع وقدرته العقلية متدنية؛ طالما استخدم عقله في النظر في النصوص ووقف على دقائق الفقه؛ ولعل مثل هذا الحديث وغيره هو الذي حمل أئمة الفقه الكبار على حبس أوقاتهم وأعمارهم في خدمة العلم والمعرفة، يستنبطون القواعد ويطبقونها على المسائل.

(٢٣) ينظر، علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢٩/٨، ٢٨، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه محمد بن عمر بن الرومي وثقه ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات.

(٢٤) مسند الحارث - كتاب الأدب، باب ما جاء في العقل - حديث:٨٠٨ ، والمغني عن حمل الأسفار ج١/ص٥١ حديث رقم ٨٤١، و ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية، - كتاب الأدب، باب العقل وفضله - حديث:٢٨٣٥.

وجاء من حديث علي "إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل، فاكتسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب.[٢٥]

فالحديث إسناده ضعيف ولكنه يعضد المعنى العام الدال على أهمية العقل في التزكية والتربية، فهو الوسيلة الفاعلة والطريق القصير في السير إلى الله، وبه يسبق ويتقرب السالك إلى الله أكثر من كل أنواع البر التي تقوم على السلوك والفعل وحده.

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله العقل قال له: قم، فقام، ثم قال: له أدبر، فأدبر، ثم قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أقعد، فقعد، ثم قال له: ما خلقت خلقاً هو خير منك، ولا أفضل منك، ولا أحسن منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أعرف، وبك أعاقب، وبك الثواب، وعليك العقاب "[٢٦]

يرى القارئ أن هذا الحديث يفهم من ظاهره أن العقل خلقه الله مجسداً ومجسماً، مثلما خلق الله الموت على صورة كبش يذبح بين الجنة والنار، وقد يكون المعنى مجازي والمراد بقيام العقل وقعوده، وإقباله وإدباره تلك الأمور المعنوية الصادرة من العقل بناء على اختلاف وتفاوت عقول الناس؛ فالقيام يرمز للظهور، والقعود يرمز للخفاء، والإقبال يقصد به توجه العقل لفعل الشيء، والإدبار يقصد به إحجام العقل عن فعل

---

(٢٥)علي بن محمد بن علي بن عراق الكناني أبو الحسن ،تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، ١/ ٢٢٠: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٩٩ هـ، الطبعة: الأولى، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف ، عبد الله محمد الصديق الغماري.

(٢٦) المعجم الأوسط: الطبراني، حديث رقم ١٨٧، وشعب الإيمان للبيهقي، حديث رقم ٤٤٤٢، وحلية الأولياء لأبي نعيم، حديث رقم ١٠٩٧١.

الشيء؛ وكما يرى الطيبي أن المقصود من هذا الحديث وغيره من الأحاديث أن العقل هو محل التكليف وكل ما يتعلق بالأمر والنهي ينتهي إلى هذا العقل؛ والغرض من عبادة الله- التي ما خلقت السموات والأرض إلا لأجلها- أنها لا تتم إلا بهذا العقل؛ والمراد بقوله ( ما خلقت خلقاً هو خير منك) أن العقل جوهر شريف يحتاج إليه الوضيع والشريف؛ ووصف العقل في الحديث بأنه هو أفضل المخلوقات؛ لأن تحصيل الفضائل والفواضل، وزيادة العبادة وبالتالي زيادة الدرجات كل ذلك لا يتم إلا عن طريق العقل؛ والمراد بوصف العقل بالحسن في الحديث أن العقل سبب لحسن المعاشرة بين الناس وتحسينها؛ وبسبب العقل وقدره ومكانته يقبل الله العبادة من خلقه، وبسبب العقل يعطي الله عباده الثواب والدرجات؛ وبسبب العقل تعرف البشرية ربها ذاتاً وصفة وحكماً؛ وبسبب العقل يعاتب الله الخلق؛ ولهذا رفع عن المجنون التكليف؛ فإذا أقبل العقل على فعل الخيرات أثابه الله، وإذا أدبر عنها عاقبه الله؛ ويأتي شرف العقل من حيث أنه سبب لتحصيل العلوم والمعارف وهذه بدورها هي الطريق إلى السعادة والفلاح الأبدي؛ وتسميته عقلا مشتقة من كونه يعقل صاحبه عن الهوى وعن كل ما لا ينبغي فعله.

ويذكر القاري أن بعض العلماء يرى أن هذا الحديث موضوع وآخرون يرونه ضعيفاً، والكل عند التصنيف والتبويب يضعه في باب الحذر والتأني في الأمور مما يدل على خطورة وأهمية العقل.[٢٧]

يفهم من الحديث وما ذهب إليه العلماء أن قعود العقل يدل على البلادة والتخلف مما يؤدي إلى قعود العقل عن أداء وظائفه ويختفي ويتوارى من المساهمة في تربية صاحبه، وعكس ذلك العقل المقبل والقائم، فهو العقل الذي ينتهي بصاحبه إلى فعل الأوامر واجتناب النواهي؛ وبالتالي يصل إلى مدارج الكمال بسبب نهي وعقل النفس عن الوقوع في ما يحول بينها وبين الفلاح والسعادة الأبدية.

وأن من ثمار العقل القائم المقبل تحصيل الفضائل وتحسين العلاقات الإنسانية بين الناس؛ ولهذا قد يوجد في كثير من الشعوب التي ترتفع عندها نسبة الذكاء نظاماً اجتماعياً متماسكاً وقوياً، وإن لم يكن لهذه المجتمعات دين تدين به؛ وهذا ما جعل المعتزلة يؤمنون بالحسن والقبح العقليين؛ ولكن لو جمع المرء بين هذا العقل والإيمان فإنه لا يجارى ولا يبارى، أي جمع بين العقل المسموع والعقل المطبوع.

وبالرغم من أن بعض العلماء تكلم في وضع هذا الحديث وطعن في ثبوته إلا أن ما ينتهي إليه هذا الحديث من معاني ومفاهيم جاءت في كثير من نصوص الكتاب والسنة، وأن كثيراً من العلماء نقله واستشهد به؛ ولا

---

(٢٧) ينظر: علي بن سلطان محمد القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ، ٩/ ٢٦٠، ٢٦٠، ٢٦١ : دار الكتب العلمية – لبنان/ بيروت – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م، الطبعة: الأولى، تحقيق: جمال عيتاني.

يبعد أن تكون مثل هذه الأحاديث بالرغم من ضعفها كانت سبباً للنهضة الحديثة في أوربا التي قامت فيها فلسفات ومدارس أعلت من شأن العقل.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والصوم والزكاة والحج والعمرة حتى ذكر سهام الخير، أي أبوابه وأنواعها كلها، أي جميعها وما يجزي، بصيغة المجهول، أي ما يثاب يوم القيامة إلا بقدر عقله".[٢٨]

ويذكر القاري في تفسير هذا الحديث أن مقدار الثواب والدرجات المترتبة على كل أعمال البر بمختلف أنواعها إنما يقوم ويبنى على استخدام العقل المطبوع، ويرى الطيبي أن العقل المطبوع هو الأصل في زيادة الثواب والدرجات، فالعقل المسموع وحده لا يكفي إلا بمعونة العقل المطبوع؛ لأن الأخير هو المميز الذي يضع كل شيء في موضعه وبه تتفاوت صلاة عن صلاة، وصدقة عن صدقة، وصوم عن صوم، ورب ركعة أفضل من ألف ركعة، وقل مثل ذلك في كل أعمال البر.

ويرى القاري أن العقل المطبوع لا علاقة له في تحديد الحسن والقبح المتعلقين بالأمر الشرعي؛ فذلك أمر يرجع إلى العقل المسموع؛ ولكن العقل المطبوع يساعد على فهم مقاصد ودقائق النص، ويؤيد كل ذلك حديث عمار بن ياسر مرفوعا" أن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته تسعها ثمنها سبعها سدسها خمسها وربعها ثلثها نصفها.[٢٩][٣٠]

---

(٢٨) علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ٨/ ٢٨: دار الريان للتراث/دار الكتاب العربي - القاهرة ، بيروت - ١٤٠٧هـ، وفيه منصور بن صقير، قال ابن معين:( ليس بالقوي) وسقط من الإسناد إسحق بن عبدالله بن أبي فروة، وهو متروك.

(٢٩) سنن النسائي ١/ ٢١١، وأبو داود السنن، ١/ ٢١١.

(٣٠) ينظر: القاري، مصدر سابق، ٩/ ٢٦٢.

ويفهم من ذلك أن العقل المطبوع المميز والذي يقصد به الفطانة والذكاء أمر مطلوب ليس في العلم والمعرفة فقط؛ بل وحتى في أداء العبادات بكل أنواعها فالترقي في الدرجات المشار إليه، وما يترتب على ذلك من ثواب إنما يكون في الدنيا والآخرة.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أبا ذر لا عقل كالتدبير "(٣١)

ويرى الطيبي أن التدبير المذكور في هذا الحديث مراد به العقل المطبوع؛ لأن العقل المسموع لا يعتد به، ولا ينفع صاحبه إلا بمعونة العقل المطبوع؛ ويؤكد القاري أهمية الترابط بين العقلين؛ والعقل المسموع ولو كان صاحبه لا يمتلك العقل المطبوع المسموع ربما ينفع صاحبه؛ ومثال ذلك الإيمان القائم على التقليد، ولكن المعنى المراد بالتدبير، هو العقل الذي ينظر في دبر الأمر وعاقبته ويميز ما يحمد وما يذم في الآخرة، وهذا مداره العقل المسموع.(٣٢)

ويلاحظ الخلل الموجود في الحضارات المادية التي قامت عبر التاريخ؛ لأنها ركزت على العقل المطبوع، وأهملت العقل المسموع الذي يربط كل مناشط الحياة بالآخرة؛ ومن هنا كان الخلل في الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ بينما قامت الحضارات الدينية وبسبب قدرة الأنبياء وأتباعهم على الجمع بين العقل المسموع والعقل المطبوع المكتسب، قامت على العقلين فأثمرت سعادة وطمأنينة واستقراراً للبشرية.

---

(٣١) صحيح ابن حبان،٢/ ٧٩.

(٣٢) ينظر: القاري، مصدر سابق، ٩/ ٢٦٣.

واليوم الأمة الإسلامية بدعاتها ومفكريها وعلمائها، خاصة في ظل الانفجار المعرفي مطالبة أن تقدم رجالاً لهم القدرة على الجمع بين العقل المسموع والعقل المطبوع.

عن نافع عن بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الاقتصاد في النفقة نصف العيش، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم".(٣٣)

ويفهم من هذا الحديث أن التحبب إلى الصالحين من الناس يمثل نصف العقل بمعنى أن التعامل معهم يزيد في قدرات العقل المسموع والمطبوع؛ فعقل الفرد نصف فإذا انضاف إلى آخر كمل؛ وكان بعض العارفين يقول لبعض تلاميذه أنا وأنت إنسان كامل لأنك حافظ القرآن وأنا مفسره؛ ولعل هذا معنى ما رواه ابن أبي الدنيا في الإخوان عن سهل بن سعد مرفوعاً " المرء كثير بأخيه" ولا شك أن مصاحبة أرباب الكمال تورث كمال العقل في جميع الأحوال؛ فإن علمان خير من علم واحد.(٣٤)

وجملة ما يفهم من هذه الأحاديث، وما فهمه العلماء منها، أن العقل بنوعيه هو مناط التكليف، وأن حسن دين الفرد والمجتمع وترقيه يكمن في الاستفادة من خصائص وفضائل العقل في التربية والسلوك.

---

(٣٣)محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، ١/ ٥٥ : مؤسسة الرسالة – بيروت – ١٤٠٧ – ١٩٨٦، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. والطبراني: المعجم الوسيط، ٧/ ٢٥.

(٣٤) ينظر: القارس، مصدر سابق، ٩/ ٢٦٣.

**ضوابط العقل:**

إن العقل وحده دون ضوابط لا يمكنه أن يقوم بدوره في التربية؛ وهذه الضوابط يختلف فيها الناس بناء على خلفيات فكرية وعقدية وبيئية؛ ولعلماء المسلمين فهم خاص لهذه الضوابط تقوم على ما فهموه من الكتاب والسنة.

فالإمام الغزالي يرى أن العلم بأمور الدنيا والآخرة، والحقائق العقلية المتمثلة في العلوم الكلية الضرورية، من خواص العقل البشري التي تفرد بها ولا يشاركه فيها حيوان، وهذا العلم محله القلب والعقل، وتلازمه الإرادة التي هي شوق منبعث من القلب نحو عاقبة الأمور التي أدركها العقل، وهذه الإرادة غير إرادة الشهوة وإرادة الحيوان لأنَّ باعثها العقل، ولذلك هي إرادة ضد الشهوة، ولو خلق الله العقل الذي يعرف عواقب الأمور ولم يخلق هذه الإرادة الباعثة والمحركة للأعضاء؛ لتحقق المصالح، لضاع حكم العقل، فالتلازم بين العلم والإرادة خاصية تفرد بها الإنسان، بل ويفتقدها الطفل في مراحله الأولى، ولا تحدث عنده إلاَّ بعد البلوغ، خلافاً للشهوة والغضب.[٣٥]

فالعقل هو الأصل الذي يعتمد عليه في الإصلاح بدل الهوى، ولكي لا يقع في متاهات الشهوات والشبهات لا بد من ضبطه عن طريق الدِّين(الإرادة الضابطة)، لا عن طريق التاريخ وحده ، كما يزعم (الدوس هكسليAldous-Huxley).الذي يرى أنَّ الاعتماد في مبادئ السياسة العليا يقوم على السيكولوجيا، وأنَّ هذه الإدراكات السيكولوجية يتم مراقبتها

(٣٥)ينظر، الغزالي، الإحياء، ٣/٨.

عن طريق دراسة التاريخ، وأنَّ العقل الناقد قوة محررة إلى حد ما، ولا ضابط له إلاَّ الإرادة، ولمَّا كانت الإرادة نفسها غير نزيهة وغير متحيزة، فإنَّ العقل يصبح وسيلة لتحكيم الأهواء والأوهام وتبرير المصالح الخاصة.(٣٦)

ويلاحظ أنَّ هكسلي يشير إلى إرادة الشهوة وإرادة الحيوان، لا الإرادة المنبعثة من القلب التي أشار إليها الغزالي، والتي لا تتحقق إلاَّ عن طريق الدِّين، والتي هي الضابط الوحيد لتصرفات العقل، وأطلق الشيخ محمد الحمداوي على هذه الإرادة الباعثة-التي أشار إليها الغزالي-الإرادة الطيبة، التي هي شرط في أن يكون العقل أداة بناء لا أداة هدم ، وأداة إصلاح لا أداة إفساد.

ولا ينكر علماء الإسلام أن يكون للتاريخ دور-بجانب الإرادة الباعثة الطيبة-لضبط تصرفات العقل، وذلك عن طريق العبرة بأحداث التاريخ، والتأييد والاستشهاد والاستئناس، لا الاعتماد العلمي، والمراقبة الأساسية الخالية من الإرادة الباعثة الطيبة.(٣٧)

فالإرادة الشهوانية الحيوانية غير النزيهة و غير المتحيزة-والتي هي في مقابل الإرادة الباعثة الطيبة- والتي أشار إليها (الدوس هكسلي Aldous-Huxley)بأنَّها وسيلة لتحكيم الأهواء والأوهام وتبرير المصالح الخاصة، هذه الإرادة الشهوانية هي التي تسود في عالم اليوم، فإذا

---

(٣٦)ينظر، فضيلة الشيخ محمد الحمراني، مقال بعنوان السياسي المسلم، في مجلة الشبيبة ، الإصدار الرابع عشر-ربيع الثاني ١٤٢٥هـ.

(٣٧)ينظر، فضيلة الشيخ محمد الحمراني، المرجع نفسه.

كان علماء الغرب معذورون في عدم إدراك الإرادة الباعثة الطيبة؛ لعدم خلفيتهم الدينية، فمن يعذر ساسة وعلماء السياسة المسلمين في جهل هذه الإرادة الباعثة الطيبة، وتبنيهم للإرادة الشهوانية الحيوانية، غير النزيهة في سياسة أممهم، ودولهم؟.

أشار ابن القيم إلى أنَّ تمام السعادة والفلاح-وهي الغاية الكبرى التي تسعى لها كل الأمم والشعوب والحكومات-تكمن في معرفة المرء تفاصيل أسباب الخير والشّر الكامنة في تجارب النَّفس والتاريخ، ومصدر هذه المعرفة القرآن والسنة؛ لِمَا فيهما من أخبار صادقة عن الأمم السابقة.(٣٨)

ولقد جاءت عدة آيات في القرآن المكي والمدني، تشير إلى أهمية التاريخ، بجانب الإرادة الباعثة الطيبة، في ضبط العقل وتربيته وتوجيهه ، كقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف:١٠٩].

فالهالكون من الأمم السابقة، محل العبرة والعظة، هم من كذبوا الرسل والآيات؛ وذلك بسبب شغفهم وتعلقهم بالدنيا؛ وإن الفلاح لمن اتقى من الشرك والمعاصي، ولا يتم ذلك إلا لمن استخدم عقله ناظراً في عاقبة الأمر.(٣٩)

(٣٨)ينظر، ابن القيم، الجواب الكافي، ١/١١، دار الكتب العلمية، بيروت.
(٣٩) ينظر: البيضاوي، مصدر سابق، ٣/ ٣١٢.

فالنظر في التاريخ وما فيه من سنن وقوانين إلهية تتعلق بسعادة الأمم وهلاكها أمر يقوم به العقل المحروس بالإرادة الضابطة المنبعثة من القلب المؤمن بالوحي بشقيه المنظور والمقروء، وهي إرادة نزيهة وغير متحيزة ولا تتحكم فيها الأهواء، ولا الأوهام، ولن تكون وسيلة لتبرير المصالح؛ وأظهر ما في عبر التاريخ أن هلاك الأمم سببه الشرك والمعاصي، وهي من معوقات النظرة الكلية للعقل؛ ولهذاكانت الفاصلة مختومة بقوله( أفلا تعقلون).

وقوله :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦].

يذهب ابن عطية إلى أن هذه الآية تقتضي أن العقل في القلب؛ وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل متى اختل الدماغ؛ ويرى البيضاوي أن العقل هو الوسيلة التي توجب التوحيد بسبب النظر والاستدلال، وأن الآذان هي الوسيلة التي عبرها يتم معرفة آثار السابقين وذلك بسماع قصص الوحي؛ فالخلل ليس في مشاعرهم، ولكن مرضت قلوبهم بسبب اتباع الهوى والانهماك في التقليد. (٤٠)

(٤٠) ينظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ٤/ ١٢٧ : ، دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، الطبعة: الاولى، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، وينظر: البيضاوي، مصدر سابق، ٤/ ١٣٠.

فالعقل بسبب نظره وتأمله في ما توصل له العلم من كشوف وحقائق علمية متعلقة بالتاريخ، خاصة علم الجيولوجيا والجغرافيا، والتاريخ وما يكشفه من حقائق عن الأمم السابقة؛ يكون كل ذلك وسيلة تربوية فاعلة تغرس في النفوس والعقول التوحيد؛ وكذلك ما يصل إلى العقل عن طريق السمع من أخبار الأمم السابقة التي يقصها القرآن؛ وأن من أكبر المعطلات لدور العقل في التربية هو الهوى والتقليد.

وقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[الروم:٩].

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[غافر:٨٢].

يرى البيضاوي أن المراد هم قوم عاد وثمود أصحاب القلاع والمدائن الحصينة، ويرى السمرقندي أن المقصود بالآثار كثرة الأعمال والنشاط، بينما يرى الألوسي أن لهم قدرة وتمكناً في تصريف الأمور. (٤١)

---

(٤١) ينظر: البيضاوي، مصدر سابق، ٥/ ٨٩، وينظر: العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ٢٤/ ٦٠: دار إحياء التراث العربي – بيروت، وينظر: نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، تفسير السمرقندي المسمى بحر العلوم، ٣/ ١٩٣: دار الفكر – بيروت، تحقيق: د.محمودمطرجي.

وقد أهلك الله أصحاب هذه الحضارة ولم تنفعهم قوتهم المادية ولا حصونهم ولا كثرة نشاطهم؛ لأنها حضارة قامت على العقل وحده ولم تقم على الدين؛ بل كذبوا بالوحي؛ وهذا يدل على أن العقل المطبوع وحده لا يجدي نفعاً بدون المسموع، وأن التربية العقلية التي لا تنطلق من نصوص الوحي محكوم عليها بالفشل؛ وبهذه العظة والعبرة المأخوذة من التاريخ يمكن أن يضبط العقل بعيداً عن الهوى والتحيز، والنظرة الضيقة لمصالحه.

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾[محمد: ١٠]

يرى الزمخشري أن التدمير قد لحق كل شيء يختص بهؤلاء الكفار من أنفس وأموال وأولاد وكل أملاكهم؛ والضمير في قوله (أمثالها) يعود إلى العاقبة المذكورة وقد يعود للهلاك أو للسنة الإلهية؛ ويرى النسفي أن الهلاك والتدمير هو هلاك استئصال؛ ويذهب الفخر الرازي إلى أن مثل هذا التدمير قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة؛ وأن الأسر والقتل الذي لحق بكفار قريش هو شكل من أشكال التدمير، وقد يصيب المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو أشد من دمار الأمم السابقة؛ لأن دينه هو الخاتم. (٤٢)

---

(٤٢) ينظر: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤/ ٣٢٢: دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، وينظر: عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي،مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ٤/ ١٤٦، وينظر: فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ٢٨/ ٤٤: دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.

ولكي تتجنب الأمم والحضارات السقوط المدوي في كل زمان ومكان، والاستئصال الكامل، عليها النظر في أسباب الخير والشر الكامنة في النفس والتاريخ؛ وأن تضبط العقل بذلك وهو يؤسس لمناهج النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ وإلا فإن سنة الهلاك ماضية؛ ولن تجد البشرية مادة تستقي منها تجاربها أصدق من القصص القرآني.

**أمراض العقل:**

**داء الجدل:**

يُعَدُّ الجدل غير المحمود من المجالات التي تهدر طاقة العقل البناءة، ولمَّا كان الجدل يقع تحت دائرة الأعمال العقلية، فإنَّ له أثر بالغ على صحة العقول ومرضها، وقد أضاعت الأمَّة الإسلامية عبر تاريخها جهداً ووقتاً في الجدل المذموم، الذي شل قدرتها على التزكية والإصلاح، والتقدم في كل أوجه الحياة، لأنَّ طوائف منها–وفي مقدمتها المعتزلة–أعملت العقل في قضايا العقائد التي هي خارج دائرة التفكير العقلي، ولو أنها أعملت عقولها وصرفت جهدها إلى فقه المعاملات، من سياسة واقتصاد واجتماع وزراعة، وصناعات وكشوف؛ لسبقنا الغرب في النهضة المادية منذ زمن بعيد.

ويستدل أهل التفسير بقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: من الآية٧]، على أنَّ

الجدل واتباع المتشابه، هو من علامات الكفر وانحراف التصور، وذلك من أخطر أمراض القلوب؛ وقد أخرج أبو داود والحاكم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"الجدال في القرآن كفر".(٤٣)

ويتمثل الجدال في القرآن، المشار إليه في الحديث، الذي هو شكل من أشكال فساد التصور، في تتبع آيات القدر، وتتبع المتشابه، بنية ضرب بعضه ببعض لا بنية التوفيق بين النصوص وفق منهج السلف، والخوض في قدمه وحداثته؛ وقد ظهر هذا الانحراف في منهجٍ أهل الكلام، وأصحاب الآراء والأهواء، وإطلاق وصف الكفر على هذا النَّوع من الجدال، باعتبار ما سيؤدي إليه من الكفر، لا أنَّ كل جدل كفر، لأنَّ الجدل والحوار المنصب في آيات الأحكام، وأبواب الحلال والحرام، أمرٌ مرغوبٌ فيه، وقد مارسه الصَّحابة، وعلماء الأمَّة على امتداد التاريخ لأنَّ الغاية من ورائه؛ إجلاء الحق للإتباع لا للغلبة والتعجيز.(٤٤)

عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن وراء حجرته قوم يتجادلون في القرآن، فخرج محمرة وجنتاه، كأنما تقطران دماً، فقال:" يا قوم لا تجادلوا بالقرآن، فإنما ضل من كان قبلكم بجدالهم، إنَّ القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ولكِنْ نزل ليصدق بعضه بعضاً فما كان من محكمه، فاعملوا به، وما كان من متشابهه فآمنوا به.(٤٥)

---

(٤٣)ينظر، البيهقي، مصدر سابق، ٤١٧/٢.

(٤٤)ينظر، محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود، ٢٣١/١٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية،

(٤٥)ينظر، أحمد بن حنبل، المسند، ١٧٨/٢، وينظر، الحارث بن أبي أسامة/ الحافظ نور الدِّين الهيثمي، مسند الحارث{زوائد الهيثمي}، ٧٤٠/٢، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، ط١، تحقيق د/حسين الباكري.

**تقديم العقل على النقل**

يرى ابن تيمية أنَّ أحد أوجه الفساد، ومعوقات الإصلاح، هي معارضة كتاب الله بمقولات ومفاهيم وبراهين وأقيسة ومكاشفات ومواجيد وأذواق، ليس لها أصل من كتاب ولا سنة، وفي اعتقاده أنَّ كل أوجه المعارضة هذه تقع في دائرة قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾[غافر:٣٥] ، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر:٥٦]،وكل هذا جدال من غير سلطان. (٤٦)

إنَّ تقديم العقل والقياس على الشّرع عند التعارض، هو من بدايات الانحراف، وأنَّ ذلك لم يكن من نهج السلف، وإنّما جاءت به فرق المعتزلة والجهمية وغيرهم، عندما بنوا أصول دينهم على العقل، وردوا نصوص القرآن عليها، فإذا ما حدث تناقض بين أصولهم والقرآن، فإنهم إمَّا يلجؤون إلى التفويض أو التأويل. (٤٧)

يلاحظ من تحليل ابن تيمية لمصادر الانحراف، أنها بدأت عندما ظهرت فرق في العالم الإسلامي، لها مناهجها في التزكية والإصلاح ، وهو لا يعارض إعمال العقل، ولكِنْ في اعتقاده أنَّ هذه الفرقة كثيراً ما تعارض القرآن بما توصلت إليه من أقيسة وبراهين ومواجيد وأذواق، تظن أنها تصلح للتزكية والتطهر والإصلاح، بينما يرى ابن تيمية هذه الاتجاهات غير المعتصمة بكتاب الله هي سبب البلاء لهذه الأمَّة.

(٤٦)ينظر، ابن تيمية، الاستقامة، ١/٢١-٢٢.
(٤٧)ينظر، ابن تيمية، المصدر نفسه، ١/٢٣.

**الخاتمـــــة :**

إن العقل نعمة من الله به يفهم وحيه وبه تلجم الـنفس عـن اتبـاع الهوى؛ وهو العاصم من الجهل؛ وكل ذلك يحول بين النفس والهلاك.

ولما كان القلب هو مكان البصيرة والعمى والهدى والضلال والإيمان والكفر يعبر القرآن عن القلب بالعقل؛ وذلك لأهميته في التربية والسلوك والسير إلى الله.

والعقل بنوعيه المسموع والمطبوع لا غنى عنهما في التربية؛ وما جاء النقص إلا من أعلاء قيمة أحدهما وترك الآخر؛ وهذا مقصد من مقاصد الشيطان أضل به جبلاً كثيراً؛ وقصرت أعمار حضارات لأنها أخذت بأحدهما وتركت الآخر.

لن تكون للعبادات ولا الشرائع قيمة ولن تبلغ غاياتها في التربية وتغيير السلوك إذا لم تقم على التدبر والتفكر، وهي عمليات عقلية، مما يدلل على الدور الخطير للعقل في تزكية النفوس وإصلاحها؛ فالدرجات والحسنات تقوم على قدرة المرء على التدبر والتفكر في كل أمر من أمور الدين.

يحض القرآن الكريم على التدبر بالقلب في معاني وآثار الأسماء والصفات المتجلية في الكون؛ وذلك أحد أقوى الأسباب التي تورث المحبة؛ ولا طريق لذلك التدبر والتفكر إلا من خلال العقل؛ ومن هنا يدرك الباحث خطورة فصل القوانين الكونية والحقائق العلمية- التي توصل إليها العلم عن طريق العقل- عن أسماء وصفات الله؛ وأثر ذلك على التربية والسلوك.

لقد أضاعت البشرية وقتا طويلاً وجهداً كبيراً عندما اشتغلت بالجدل العقيم الذي يخوض في مساحات لم يخلق العقل لها مما فوت عليها مصالح كثيرة؛ فالجدل، غير المنضبط، من أخطر أمراض العقول.

كما أن معضلة تقديم العقل على النقل ما تزال تتفاعل بين تيار يرى تقديم العقل مطلقاً وآخر يرى تقديم النص مطلقاً؛ وكلا طرفي الأمور ذميم؛ فالواجب التوازن بين حضارة مادية جعلت العقل أساس كل شيء، وبين تيارات استعصمت بالنص وأغلقت باب الاجتهاد.

**التوصيات:**

أولاً: الاستفادة من الدراسات العلمية الحديثة التي تبين تركيبة العقل من ناحية بيولوجية وربط ذلك بالإشارات القرآنية التي تتحدث عن العلاقة بين العقل والقلب ومن ثم قراءة مناهج التربية والسلوك على ضوء تلك الحقائق.

ثانياً: إزالة الثنائية والتناقض الذي قد يبدو بين العقل والنص تقريباً للتيارات المتناقضة منذ القدم حول هذه العلاقة.

ثالثاً: مراجعة الأحاديث التي وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم والتي تبين أهمية العقل؛ وقراءتها مع نصوص القرآن الكريم؛ إذ لا يعقل أن كل ما جاء عن العقل من حديث هو موضوع أو ضعيف.

رابعاً: التركيز على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم والسنة النبوية في كتابة مناهج التربية ودعوة غير المسلمين إلى الإسلام؛ إنها لغة العصر؛ ولا يحسنها إلا العقل.

خامساً: إعادة قراءة الاستحسان والاستصحاب والمصالح المرسلة كأحد أهم مصادر التشريع؛ لفتح باب الاجتهاد واستيعاب مشكلات العصر المعقدة والمتجددة.